الفصل الثالث
عصر عمر الخيام
(١)
المناخ السياسى

نشأ الخيام وقضى حياته فى نيسابور وما جاورها من البلاد كبخارى ومرو وبلخ وبغداد، وعاصر الدولة السلجوقية وعرف من سلاطينها ألب أرسلان وملكشاه، وسمع بسقوط بلاد الإسلام فى أيدى الصليبيين وتأسيسهم لإمارات صليبية فى الرها وإنطاكية وأورشليم. وكان خلفاء العباسيين مجرد دُمى فى أيدى سلاطين الولايات، وبعضهم استقل بالحكم تماماً كما فى مصر الفاطميين ودولة الملثمين. وكانت المكائد بين السلاطين، وبينهم وبين الخلافة على أشدها. وتدهورت أحوال الزراعة وكسدت التجارة بسبب الفتن والقلاقل، وغلت الأسعار، وعمّ الشغب وثار العوام هنا وهناك، وأحرقوا المحال حتى كانت النيران أحياناً تأتى على المدن بأكملها. ولمّا تولى نظام الملك الوزارة كانت البلاد قد اختل نظامها، والدين تبدلّت أحكامه، وخربَت الممالك بين إقبال هذه الدولة وإدبار تلك، وأقفرت البلاد وأقوَت، واستولت الأيدى العابثة وتقوّت كما يقول ابن الأثير، وقامت النوائح على النواحى، والنوادب على النوادى، ولم يكن لأحد من قبل الدولة السلجوقية إقطاع، فرأى السلاطين أن الأموال لا تُحصّل من البلاد إلا بتفريقها على الأجناد إقطاعيات، جعلوها لهم حاصلاً وارتفاعاً. وكان للسلاطين أنسباء يُدلّون بنسبهم وبسببهم، ويستطيلون بأنهم ذوى قرابة. ولما أراد نظام الملك وغيره التصدى لهذه الأحوال تآمر عليه أصحاب المصلحة وقد قرّ قرارهم على إسقاطه ومخالفته، وغيروا رأى أهل النفوذ عليه، وانتشرت الدسائس فى البلاط، وانبرى الشعراء يمدحون هذا ويهجون ذلك بحسب الأحوال. **وسنرى أهمية الخيام كشاعر لم يشترك فى عملية المدح والهجاء،** وقد تطرق برباعياته إلى موضوعات ربما لم يسبقه إليها شاعر إسلامى آخر. ولعل أبو يعلى **الهبارية** كان خير المعبرين عن مثل هذه الأوضاع بقصيدته التى يقول فيها:

لو أن لى نفساً هــربتُ * لِمَا ألْقَى ولكن ليس لى نَفْس
مالى أقيم لدى زعانفة * شم القرون أنوفهم فطس

ولم يكن السلاجقة من العرب، وكانوا أتراكاً غلبوا على أكثر الأقطار الإسلامية ونفر منهم الفرس، وكانوا يعاقبون المتمردين على أحكامهم إما بالسمّ أو بالسجن أو الخنق أو السمل، ولم ينج من ذلك السلاطين أنفسهم ولا نساؤهم، فبركيارق قتل عمه وغرّقه وقتل ولده معه، وكانوا يكحلونهم ويحبسونهم، ولما جرؤ الوزير الكندرى أن يخطب إحدى النساء، وكان السلطان طغرل يريدها لنفسه، أخصاه عقاباً له فى خوارزم، وعندما قبض عليه ألب أرسلان لتأييده لولاية أخيه سليمان بدلاً منه أمر بقتله فى مرو، ثم أخذوا جسده إلى موطنه كندر فدفنوه بها، ورأسه حملوها إلى نيسابور فدفنوها بها، وأما تحف الجمجمة فقدموها لألب أرسلان فى كرمان!

والكندرى هذا كان ملماً بالعربية وقدمه موفق النيسابورى إلى طغرل لهذا السبب فألحقه بخدمته وجعله كاتباً له، وكان له شعر جميل، كما كان متعصباً للشافعية، وأمر بلعن الرافضة والأشعرية فى المساجد، فلما جاء نظام الملك منعهم من لعن الأشعرية، وبذلك أرضى جملة من الفقهاء والصوفية منهم أبو المعالى الجوينى والإمام القشيرى مؤلف الرسالة.

وهذه الميتات الشنيعة من أمثال ميتة الكندرى كانت قدراً مقدوراً على الكثيرين، وحتى ألب أرسلان نفسه فإنه لمّا توجه إلى سمرقند وعَبَر النهر بعسكره الذين زادوا على مائتى ألف، أتاه أصحابه بمستحفظ قلعة يُعرف بيوسف الخوارزمى كان من الباطنية، فهجم على السلطان وركب على صدره وضربه بسكين كان فى خاصرته.

وبدا أن كل مافى عصر الخيام سيء للغاية، وحتى فى أقصى الغرب سقطت طليطلة فى أيدى الفرنجة وأخذوها من المسلمين، وكان لذلك وقع الصاعقة فى كل بلاد الإسلام. وكأنما حلّ غضب الله بالناس، فمع هذه الأخبار التى تكسر القلب، وقعت زلازل كثيرة ومات خلْقٌ عديد، وعمّت الفتن فى كل مدينة تقريباً وبين مختلف الطوائف، وكانت الفتنة الكبرى ظهور الاسماعيلية، ولم تعرف بهم الدولة لخلوها من أصحاب الأخبار والبريد الذين يكاتبونها بما فى الأقاصى والأدانى. وكان نظام الملك قد طلب من ألب أرسلان تعيين من يطالعهم بما يجرى فى البلاد، فرفض بدعوى أن الدنيا لاتخلو كل بلد فيها من أصدقاء للدولة وأعداء، فإذا نقل صاحب الخبر للدولة ماله غرض فيه فإنه يخرج به الصديق فى صورة العدو، والعدو فى صورة الصديق، فأسقط السلطان الفكرة، فلم يشعر إلا بظهور القوم أى الاسماعيلية، وقد استحكمت قواعدهم، واستوثقت معاقدهم، وأخافوا السبل، وأجالوا على الأكابر الأجل. وكان الواحد منهم يهجم على كثير وهو يعلم أنه يُقتل فيقتله غيلة، ولم يجد أحد من الملوك فى حفظ

نفسه منهم حيلة، فصار رأى الناس فيهم فريقين، فمنهم من جاهرهم بالعداوة والمقارعة، ومنهم من عاهدهم على المسالمة والموادعة، فمن عاداهم خاف من قتلهم، ومن سالمهم نُسب إلى شركهم. وكان الناس منهم على خطر عظيم من الجهتين، فأول مابدأوا بقتل نظام الملك، ثم اتسع الخرق، وتفاقم الفتق. وقتلوا الوزير مؤيد الملك بن نظام الملك، والوزير فخر الملك بن نظام الملك، وكادوا يفتكون بالوزير نظام الملك بن أحمد بن نظام الملك. وقتلوا القاضى عبد الله بن على الخطيب، والقاضى صاعد بن محمد بن عبد الرحمن أبى العلاء والشريف أبا الحسن، قالوا قتله كيماوية، ادّعو أنهم يعملون النقرة. وقتلوا أبا جعفر المشّاط من شيوخ الشافعية وكان تلميذاً للخجندى، فلما نزل من الكرسى أتاه باطنى فقتله وقتلوا الخجندى بنفس الطريقة، وكان نظام الملك قد سمعه فأعجبه كلامه، وعرف محله من الفقه والعلم فعّينه مدرساً بمدرسته النظامية، فنال جاهاً عريضاً، وكان النظام يتردد عليه ويزوره. وقتلوا الأعز أبا المحاسن عبد الجليل بن محمد الدهستانى وزير بركيارق، وكان راكباً متوجهاً إلى خدمة السلطان، فجاء شاب أشقر، وكان باطنياً، فاعتدى عليه بسكين، وجرحه عدة جراحات، فتفرق أصحابه من حوله، ثم عادوا إليه، فجرح الشاب أقربهم إليه جراحات أثخنته، وعاد إلى الوزير فلم يتركه إلا بآخر رمق.

وكانت البلد التى يثور أهلها تحاصر وتضرب بالمنجنيق ويؤسر أهلها ويصلبون على الأسوار. وكان يكفى أن يكون المرء سلجوقيا ليكون له الامتياز فى كل شىء، وكان السلاجقة يأكلون الأموال ويقتطعون الأعمال. وكان العامة إزاء مايحيق بهم يظهرون غضبهم بإغلاق الأسواق، ورفع المصاحف، وكانوا ينهبون ويحرقون ويكثرون من الكلام الشنيع والقتل، وكثيراً ماكانت أسواق الصاغة والصيارف والمخلطين والريحانيين تأتى عليها النيران، وقد يستمر الحريق من الظهر إلى العصر. وحتى الحُجّاج لم يكونوا يسلمون من التعدى، فكان العسكر يلحقون بقوافلهم وينهبونهم، ومن يعترض كان يقتل.

وقيل إنه فى استيلاء الصليبيين على بيت المقدس قتلوا من المسلمين سبعين ألفاً، منهم كثير من أئمة المسلمين وعلمائهم وعبّادهم وزهّادهم ممن فارقوا الأوطان وجاوروا بذلك الموضع الشريف. وأخذ الصليبيون من عند الصخرة المشرفة نيّفاً وأربعين قنديلاً من الفضة، وَزْنُ كل قنديل ثلاثة آلاف وستمائة درهم، وأخذوا تنوراً من الفضة وزنه أربعون رطلاً بالشامى، وأخذوا من القناديل الصغار مائة وخمسين قنديلاً نقرة، ومن الذهب نيّفاً وعشرين قنديلاً، وغنموا منه مالا يقع عليه حصر، وفى ذلك كله قال **أبو المظفر الأبيوردى** قصيدته التى منها:

مزجنا دماءً بالدموع السواجم * فلم يبق منا عُرضةٌ للمراحم
وشر سلاح المرء دمع يفيضه * إذا الحرب شبّت نارها الصوارم
فإيها بنى الإسلام إن ورامكم * وقائع يلحقن الذُرى بالمناسم
أتهويمة فى كل أمن وغبطة * وعيش كنوار الخميلة ناعم
وكيف تنام العين ملء جفونها * على هفوات أيقظت كل نائم
وإخوانكم بالشام يضحى مقيلهم * ظهور المذاكى أو بطون القشاعم
تسومهم الروم الهوان وأنتم * تجرون ذيل الخفض فعل المسالم
وكم من دماء قد أبيحت ومن دمى * توارى حياءً حسنها بالمعاصم
بحيث السيوف البيض محمرة الظُبى * وسُمر العوالى داميات اللهاذم
وبين اختلاس الطعن والضرب وقفة * تظل بها الولدان شيب القوادم
وتلك حروبٌ من يغب عن غمارها * ليسلم يقرع بعدها سن نادم
سللن بأيدى المشركين قواضباً * ستُغمد منهم فى الطُلى والجماجم
يكاد لهن المستجن بطيبة * ينادى بأعلى الصوت يا آل هاشم
أرى أمتى لايشرعون إلى العِدَى * رماحهم والدين واهى الدعائم
ويجتنبون النار خوفاً من الردى * ولايحسبون العار ضربة لازم
أترضى صناديد الأعاريب بالأذى * ويغضى على ذُلٍ كماة الأعاجم

إلى أن يقول:

فليتهم إذاً يزودوا حمية * عن الدين ضنّوا غيْرةً بالمحارم
دعوناكم والحرب ترنو ملحة * إلينا بألحاظ النسور القشاعم
تراقب فينا غارة عربية * تطيل عليها الروم عض الأباهم
فإن أنتم لم تغضبوا بعد هذه * رمينا إلى أعدائنا بالجرائم

وكان الفرنجة يغيرون على بلاد الإسلام فيسوقون الماشية ويأسرون من يقع من المسلمين بأيديهم من الرجال والنساء والأطفال. وكذلك كانت الاسماعيلية (الباطنية) يغيرون على البلاد، ويكثرون القتل فى الأهالى، والنهب للأموال، والسبى للنساء. وكان السلاطين مشغولين عنهم بمؤامراتهم.

وسيّطر المنّجمون على السلاطين، وكان لكل سلطان منّجم، فمثلاً قال المنجمون لسعد الدولة إنك تموت متردياً، فكان يحذر من ركوب الخيل، وقيل إن حذره لم ينفعه، فلما كان فى حربه انهزم فتردي به فرسه فسقط ميتاً. ولعل الاعتقاد فى هذه المسائل هو الذى حدا بالدكتور **زكى مبارك** إلى أن يصف عصر الخيام، أو بالأحرى عصر الغزالى ولافرق بين الاثنين فهما من نفس العصر - أن يصفه بالسذاجة، غير أن المرحوم **أحمد الصراف** قد أخذ عليه هذا الوصف وقال عبارة أسقطته بشناعة. قال: وإن أعجب فعجبى من الأساتذة الفطاحل الذين منحوا هذا الأديب (يقصد الدكتور زكى مبارك) لقب الدكتوراه من غير مناقشة فى هذه الوثيقة (يقصد تصديق الناس فى عصر الخيام عن سذاجة أن من يدرس على الإمام الموفق النيسابورى يبلغ الرفيع من المناصب)..». وإنى لأرجع أمثال هذه الانتقادات غير العلمية، ومأأكثرها كلما اختص الأمر بمصرى، إلى الغيْرة والحسد للمصريين. وإلاّ فإذا كان الصرّاف رحمة الله عليه يتباهى بأنه أفضل من الدكاترة زكى مبارك فليقل لى لماذا أخطأ هذا الخطأ الفظيع وذكر فى معرض حديثه عن الغزالى ص٨٠ أن الخيام عاصر الغزالى وصادفه فى بغداد، وجرى بين الاثنين حوار علمى حول القُرّاء...، والغزالى الذى جرى الحوار بينه وبين الخيام فى هذه الواقعة بالذات هو إمام القرّائين **أبو الحسن الغزالى** وليس الإمام الغزالى، وكان ذلك فى مجلس الوزير عبد الرازق، وكانا يتكلمان فى اختلاف القُرّاء على إحدى الآيات!! وأما الواقعة التى ضمّت الإمام الغزالى والخيام فكانت فى مجلس آخر، وفيه سأله الإمام الغزالى عن تعيين جزء من أجزاء الفلك للقطبية. ثم إن الذى يقوله الدكتور مبارك هو حُكم على العصر - يقول العصر ساذج - والحكم ذاتى، وهو حر أن يرى فى العصر مايشاء فهذا هو انطباعه عنه وأمّا خطأ الصراف فهو غفلة موضوعية ظن معها أن القرّاء أبا الحسن الغزالى هو نفسه الإمام حامد الغزالى - وذلك أمر شنيع!!!

وكان التطاحن على أشدّه بين السنة والشيعة. وكثر الجدرى، وقد أصيب به السلطان سنجر وهو بعد طفل وعالجه الخيام. وكثيراً ماكان الجنود ينضمون للأهالى ضد السلاطين والوزراء والحاشية فيهاجمون القصور والدور الحسان ويخربونها. وكثيراً ماكانت الفتن تثور بنيسابور موطن الخيام، وتحاصَر بالشهور، ويقتتل الأهالى ويسقط الكثير من القتلى. وكان الغلاء بها يستمر أحياناً لسنوات، وقيل إنه فى زمن الخيام كان يباع كُرّ الحنطة فى سنوات

بمبلغ سبعين ديناراً، وربما زاد، وكانت تحدث مجاعات ويموت الناس بالمئات حتى كانوا يحملون على المحفة الواحدة ست جثث، وكانت الأدوية والعقاقير تشح أو تكون معدومة.

هذا إذن كان المناخ السياسي الذي عاش فيه عمر الخيام، وكان عاملاً من عوامل تزهّده واعتزاله وميله إلى التشاؤم، وأن يكتب الرباعيات وفيها كل هذا الكم الهائل من الحزن والشجن والأسى والهمّ والجزع والقلق. يقول:

دارنا صاحِ خيمةٌ في قفار
ذات بابين من دجى ونهار
ومقيل لكل غادٍ وسار
هاك فانظر آثار عزّ مئات
مثل جمشيد بعض هذي الرفات
وارنُ وانظر أطلال اربُع بهرا –
مَ وكم من جاءوا وجنّوا ذهابا

*****

قصر بهرام مربعُ السلطان
بات مأوى الآرام والغزلان
ومراحَ الضرغام والسرحان
والمليك الصيّاد صيدَ وأردي
ومن العرش حُطّ حطّاً للحُدِ
بقر الوحش فوقه رائحات
غاديات تجتاحه أسرابا

*****

(٢)

عمر الخيام والوزير نظام الملك

نظام الملك اسمه حسن الطوسى، أو الحسن بن على بن إسحق، وكنيته أبو على، وعن صلته بعمر الخيام تؤكد قصة صداقته والخيام وحسن الصباح المراجع من أمثال **جامع التواريخ لرشيد الدين فضل الله (٧١٠هـ)** و**تذكرة الشعراء لدولت شاه (٨٩٢هـ)** و**روضة الصفا لميرخند (٩٠٣هـ)**، والكتب الثلاثة تنقل عما تسميه **وصية نظام الملك** والتى فيها يحكى نبذة عن حياته، فإن أباه قد سمع بعلم الإمام **الموفق النيسابورى**، وأن من يتلقى عليه علوم العربية لابد أن ينبغ فيها ويبلغ الغاية وينساق إليه العز والجاه، ولذلك فقد وجهه إلى نيسابور ليقرأ على ذلك النابغة الجليل. وفى أول جلوسه لحلقة الدرس التقى تلميذين حديثى عهدٍ بالقراءة على أستاذهم الموفق، وكانا **عمر الخيام وحسن الصباح**. ويحكى نظام الملك أنهما كانا فى غاية الفطنة والذكاء، فأنس كل منهم بالآخر ونمت بينهم علاقة صداقة كالتى تنشأ بين الصغار دائماً عندما يتزاملون فى الدراسة، فإذا قام الإمام من حلقة الدرس اجتمعوا عند نظام الملك ليذاكروا ما تلقوه.

ويقول نظام الملك عن **حسن الصباح** إنه كان يكذب إذ يرجع أصوله إلى حِميْرَ من آل الصباح، ولكن الناس فى خراسان وطوس بالأخص يؤكدون أنه من عامة الناس، وأن أباه شديد التنسك والورع والتقشف ولكنه متهم فى عقيدته. وكان الحسن ينكر ولكنه أحياناً ينسى نفسه ويتلفظ بما يقضى بكفره، وكان شديد النقد والتحامل على أهل السنّة، فإذا واجهه الإمام الموفق بما قال أبدى البراءة، وتنصّل من التهمة مخافة أن يطرده الإمام من الحلقة. وجاء الحسن زميليه يوماً واقترح أن يتعاهدا على أن من يحقق لنفسه مستقبلاً ناجحاً فلا يقصّر فى حق صاحبيه وليقتسم معهما ما حصلّه من خير. وتعاهدوا، وافترقوا، ومضت السنون. ويقول نظام الملك إنه سافر طلباً للرزق، وتقلبت به الأحوال إلى أن التحق بخدمة السلطان وارتقى إلى الوزارة، فسمع به صاحباه عمر الخيام وحسن الصباح، فقدِمَا إليه يستقضيان العهد. ولمّا عرض نظام الملك على الخيام أن يوليه إمارة أو يلحقه بخدمة السلطان، بالنظر إلى علمه وأن مثلّه ينبغى الانتفاع به، أبَى وأبدى عزوفاً عن السياسة والوظائف العامة، وآثر أن يخصّه النظام براتب سنوى يكفيه ويغنيه عن الناس ليتفرغ لمواصلة دراسة علوم الحكمة وخاصة علم الهيئة فيفيد منه الناس. وتمضى القصة أن حسن

الصباح طلب الاشتغال بالحُكم، وظن النظام أنه يطلب إمارة أحد الأقاليم فخيّره بين الرّى وهمذان، ولكنه رفض العرضين وطلب أن يشركه معه فى الوزارة، فاكتفى الوزير أن يُبوأه معه مكاناً علّياً فى القصر، فعمل الحسن على أن يتصل بندماء السلطان وأن يجتذبهم إليه، فكان كثير الاجتماع بهم والسمر معهم وملاعبتهم النرد والشطرنج حتى ارتقى فى الوظيفة وصار حاجباً للسلطان. وكان الصباح من الشيعة الاسماعيلية فكان يكره النظام لهذا السبب لأنه كان سنياً منتصراً لسنيّته، وكانت تلك الكراهية دافعاً له أن يدس للنظام عند السلطان حتى اتهمه هذا الأخير بتبديد أموال الدولة وإساءة التصرف فيها.

وتقول القصة إن هذه الفرية انكشف أمرها فهرب الصباح إلى أذربيجان ومنها إلى الشام، ثم نزح إلى مصر سنة ٤٧١هـ، وفيها درس أصول الدعوة، وكان أبو داود داعى الدعاة قد استقبله وقدّمه إلى المستنصر بالله الفاطمى فقرّبه منه، ثم رجع إلى فارس ينادى بالخلافة لنزار بن المستنصر، ويطوف بكرمان وطبرستان يدعو له، ولمّا خاب رجاؤه قصد القلعة المشهورة باسم وكر العقاب فى قوهستان، وظل بالقرب منها يسكن إحدى المغارات ويبدى من صنوف التعبد ماجعله موضع رضا من حاكمها على المهدى، فدعاه إلى النزول بها ولكنه رفض بدعوى أنه لايحب أن يكون لأحد فضل عليه، وطلب منه أن يبيعه ولو أشبار من الأرض يقيم فيها ويتعبد عليها فى ملكه، فباعه ذلك، وأقام الصباح فى القلعة يمكر بأهلها ويخدع حاكمها حتى استطاع أن يثيرهم ضده، ثم أرسل إليه يقول: هذه القلعة ملكى وقد بعتها لى فاخرج منها- ولم يكن فى استطاعة الحاكم إلا أن يرضخ له ويخرج من القلعة بعد أن انضم رجاله إلى الصباح.

وتختلف الرواية فيما رتّب نظام الملك لعمر الخيام من معاش، فذكر فضل الله أنه عشرة آلاف دينار سنويا، وقال ميرخند أنه ١٢٠٠ دينار، وقال دولت شاه إنه ١٢٠٠ مثقال من الذهب من خراج نيسابور.

هذه هى القصة المشهورة والتى ينكرها البعض بدعوى أنها جميعها ملفقة، لأن نظام الملك لم يكن من سن الخيام ولا الصباح، وأن النظام كان من مواليد ٤٠٨هـ وتوفى غيلةً سنة ٤٨٥هـ، والمعروف أن الخيام توفى عام ٥١٧هـ أو نحوها، وكذلك حسن الصباح، فلو كانا من سن النظام إذن لكان عمرهما عند الوفاة فوق المائة وهذا كثير.

وأقول: إنه ليس بكثير أن يعيش النظام أو الخيام بعد المائة، فهذا الكاتب المعاصر لهما

أبو على محمد بن سعد بن إبراهيم بن النبهان قد تجاوز المائة عندما توفى وكان وحيد عصره فى علم الفرائض والحساب.

وأيضا فإنه ليس هناك ما يجزم بوفاة الخيام سنة ٥١٧ هـ، ولابأن ولادة النظام كانت فى سنة ٤٠٨هـ. ورغم أن المستشرق **إدوارد جرانفيل براون** فى كتابه الجامع **تاريخ الأدب الإيرانى** يقول بوفاة الخيام احتمالاً سنة ٥١٧هـ ويبنى هذا الترجيح على أساس أن المؤرخ العروضى قد ذكر أن الخيام كان قد مات منذ بضع سنوات قبل سنة٥٣٠ هـ، وأن البضع هو ١٣ سنة، إلا أنى فى الحقيقة لا أفهم هذا التفسيرللبضع الذى سايره عليه **الدكتور الشواربى** مترجم الكتاب، فالبضع فى اللغة العربية من ٣ إلى ٩، فتكون الوفاة كما سبق أن ذكرنا فى الفصل السابق احتمالاً بين ٥٢١ و٥٢٧ هـ. فهل ياتُرى البضع فى الفارسية هو ١٣؟

ويورد **براون** اقتراحا يوائم به بين تضارب التواريخ فى الواقع والقصة عند الأصحاب الثلاثة: النظام والخيام والصباح، وهو أن الوزير المعنى فى القصة لم يكن النظام بل هو **أنوشيروان بن خالد** الذى استوزره السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه الذى حكم فى المدة بين ٥١١ و٥٢٦ هـ، وخاصة أن هذا الوزير نفسه يحكى أنه قد سبق له أن عرف بعض رؤساء الباطنية فى شبابه ودرس مع نفر منهم، وحدده أكثر فقال إنه كان من الرى وكان كثير الأسفار محباً للإنشاء والكتابة، وهذه الصفات تنطبق على الحسن بن الصباح، فإذا عرفنا أن أنوشيروان نفسه من الرى من مواليد ٤٥٩ هـ لأدركنا للتو أنه فعلاً الوزير المعنى لأنه: يتقارب فى السن مع الصباح، ومن بلده، ويحتمل لذلك أنه درس معه، ثم كانت وفاته سنة ٥٣٢هـ، وكان سنة ٥١٧هـ وزيراً للسلطان محمود ورافقه فى رحلته إلى بغداد، وعانى كثيراً من المؤامرات من رجال القصر.

ومع كل ما سبق والأدلة التى يقدمها **براون** فلست أرى أن نظريته سليمة، وذلك أن تحديد وفاة الخيام بسنة ٥١٧ هـ افتراضى بحت ولا يوجد ما يثبته، وهناك من يرى أنه توفى سنة ٥١٥، أو سنة ٥٠٩ هـ، أى قبل أن يتولى أنوشيروان الوزارة، فقد ذكر عماد الدين الأصفهانى فى كتابه « **تاريخ دولة سلجوق**» ضمن باب «**ذكر جلوس أنوشيروان بن خالد فى نيابة الوزارة**» وباب «**ذكر وزارة شرف الدين أبى نصر أنوشيروان بن خالد**» أن أنوشيروان يقول عن نفسه إنه ظل بالوزارة سنةً وأشهراً لا يقدر على الخطاب فى مصلحة، ولاعلى التنفس بفائدة مترجحة، وقد اتفق عليه صاحبا يمينه ويساره الشهاب أسعد الطغرائى

والصفى أبو القاسم المستوفى والحاجب الكبير أرغان وامرأته قهرمانة السلطان»، ثم يقول إنه دخل بغداد سنة ٥٢٠ هـ وليس سنة٥١٧، وأنه لم يستطع أن يتقرب إلى السلطان ويبصّره بما يحاك ضده «إلا فى أواخر ذى الحجة سنة ٥٢٠ أو أوائل المحرم سنة٥٢١هـ».

ما الرأى إذن فى كل هذا التضارب فى التواريخ، وأيها نصدق؟ ثم إن المدقق فى تاريخ حياة الوزيرين «نظام الملك وأنوشيروان» لابد أن ينتهى إلى ترجيح أن الوزير المعنى هو النظام على الحقيقة وليس أنوشيروان الافتراضى.

ولا يرفض براون قصة الأصدقاء الثلاثة، ولكنه يثبتها مع هذا التغيير الذى يقترحه، ونحن نؤيد القصة بحذافيرها دون تغيير، وذلك للأسباب التالية:

١ – أنوشيروان شخصية ضعيفة ومهزوزة ويعترف هو نفسه بأنه كان عُرضة لمؤامرات تُحاك ضده لم يستطع حيالها شيئاً إلا بعد سنة ٥٢٠، أى بعد وفاة الخيام المفترضة.

٢ – ما قيل عن نظام الملك يقضى روحاً ومبنىً أنه الوزير المعنى فى القصة بكل التفاصيل التى قيلت عنه، فهو من بيت عز من دهاقين طوس، وماتت أمه وهو طفل، وفقد أبوه ماله، واضطر أن يبحث له عن مرضعات يرضعنه حِسبةً، وأصوله العرقية وَتَقْوىَ أبيه ورضاعته عن يُتْم جعل ذلك شخصيته فيها حنوّ غريب للفقراء والمحتاجين حتى إنه لتُرْوى عنه الأعاجيب. وكان تحصيل العلم تسليته فى يُتمه فنشأ محباً أن يتيح كل الفرص لغيره أن يتعلم. والعلم هو الذى رفعه من الحضيض ومن وظيفة كاتب صغير إلى مرتبة الوزير الأول، وظل بالوزارة ثلاثين سنة، وكان لفرط إخلاصه مطلق اليد فى الإدارة، وأنجب ١٢ ولداً صاروا جميعهم وزراء. وكان شديد التدين، جواداً، عادلاً، حليماً، ويعتبر أهم شخصية فى إيران جميعها فى عصره. وكان متضلعاً فى الحكمة وله كتاب **سياست نامه** أى كتاب السياسة، ويعتبر من أهم الكتب فى موضوعه، يحكى فيه عن خبرته فى الحكم وإدارة الدولة كما طلب منه ملكشاه. وأسلوبه فيه بسيط وأفكاره واضحة. والكتاب برمته يقضى بالتزامه الجماعة والسنّة، وأنه ضد الشيعة والقرامطة والاسماعيلية والباطنية، ويرد كل هذه الفرق إلى **المزدكية**، وبعد مزدك عاودت الظهور على يد **الخرمية** ثم سنباد المجوسى، ثم عبد الله بن ميمون القدّاح، والأخير هو مؤسس الاسماعيلية وينتسب إليه العلويون والفاطميون.

ويقول **ابن الأثير** فى كتابه **الكامل فى التاريخ** إن نظام الملك كان جم التواضع، ويحكى أنه كان يلتقى الإمام الجوينى والإمام القشيرى فينهض للسلام ثم يلزم مقعده، فإذا التقى

الإمام الفارمذى فإنه يقوم له ويجلسه مكانه ويجلس بين يديه، وذكر أن الأوليْن كانا يثنيان عليه فيغتر، وأما الثالث فكان يذكّره بعيوبه فتنكسر نفسه ويرجع عن كثير مما هو فيه. وكانت أمنيته فى ابتدائه أن يمتلك قرية بأكملها يكون ريعها له، ومسجداً ينفرد فيه للعبادة، ثم ترقّت أمنيته فصار يرغب فى قطعة أرض - مجرد قطعة - تكفيه ليتقوّت منها، ومسجدٍ يعبد الله فيه، ثم ترقّى أكثر فصارت أمنيته رغيف خبز ومسجداً يجد فيه لنفسه مكاناً للصلاة والعبادة!

هذا هو نظام الملك، فأيهما نصدق أنه المعنِّى بالقصة؟ هل هو أنوشيروان أم النظام الذى كل مافى القصة ينطبق عليه وعلى خصاله؟ ولاعجب أن يكون النظام صديق الخيام وأثيره، وأن يختصه بمعاش، وأن يفرغه لوضع الزيج الجلالى الذى أتمّه على خير وجه حتى أشاد به المحدثون قبل القدماء والشبيه يميل إلى شبيهه، والنظام الذى يتمنّى مجرد رغيف خبز وسجادة للصلاة، يقترب كثيراً فى أمنيته من الخيام الذى يتمنى نصف رغيف فقط يوميا ومكاناً يأوى إليه، ولا يكون مخدوما ولا خادما لأحد، فهذا هو أقصى الهناء عنده الذى يحمد الله عليه كل الحمد.

وشخصية نظام الملك شخصية درامية للغاية سواء فى بدايتها (الفقر بعد يسار، واليتم، والرضاعة من المرضعات حِسبة، والاضطهاد) أو فى نهايتها حيث كان اغتياله بسكين من صبى من الباطنية. والغريب أن ولدين له هما فخر الملك ومؤيد الملك قُتلا غيلةً أيضا من الباطنية. وكان نظام الملك محبوباً من الجميع... الفقراء والعلماء والدهماء والملوك. وقيل فى أيامه نشأ للناس أولاد نجباء وتوفر الآباء على تهذيبهم ليحضروهم إلى مجلسه فإنه كان يرشح كل واحد للمنصب الذى يصلح له، ويوجهه لنوع الدراسة التى تفيده فى عمله بمقدار ما يرى فيه من الرُشد والفضل. ومَنْ وجده فى بلدةٍ قد تميّز وتبحّر فى العلم بنى له مدرسة ووقف عليه وقفاً، وجعل فيها دار كتب. وهذه الأوصاف التى يوردها ابن الأثير عنه تتفق مع القصة تماما ومع أفضاله الكثيرة على الخيام وإيثاره له بالخير وقوله له إنه قد رأى فيه التفوّق فأراد أن يفرّغه لما تميزّ فيه وهو علم الهيئة أى الفلك. ويقول ابن الأثير وكأنما هذه المحامد فيه هى التى عناه بها أبو الضياء الحمصى بقوله:

وما خُلِقت كفّاك إلاّ لأربع ... وما فى عباد الله مثلك ثان
بتجريد هندىّ وإسداء نائل ... وتقبيل أفواه وأخذِ عنان

وظهر فى تدبيره فى سياسة المُلك ما قاله سليمان بن عبد الملك: عجيبٌ أمر هؤلاء الأعاجم! ملكوا ألف سنة فلم يحتاجوا إلينا ساعة (أى لم يحتاجوا للعرب)، وملكنا مائة سنة فلم نستغن عنهم ساعة!!

وفى عهد نظام الملك نشأت طبقات من الكُتّاب الجياد، وتولوا المراتب. ولم يزل بابه مجمع الفضلاء وملجأ العلماء، تماما كما فعل مع الخيام. وكان بصيراً ينقب عن أحوال كل منهم، ويسأل عن تصرفاته وخبرته ومعرفته، فمن تفرّس فيه صلاحية الولاية ولاّه، ومن رآه مستحقاً لرفع قدره رفعه وأعلاه، ومن رأى الانتفاع بعلمه أغناه ورتّب ما يكفيه حتى ينقطع إلى إفادة العلم ونَشْره، وتدريس الفضل وذِكْره، وربما سيّره إلى إقليم خالٍ من العلم ليُجبىّ به عاطله ويؤدى حقه ويميت باطله.

ولكل ما سبق نؤيد بشدة أن يكون الوزير المعنّى فى قصة الأصدقاء الثلاثة - النظام والخيّام والصباح - هو نظام الملك وليس أنوشيروان، حتى وإن تضاربت التواريخ (رغم أن نسبتها إلى أنو شيروان لم يرفع هذا التضارب كما سبق أن نوهنا)، فروح القصة ومبناها كلاهما ينسجم مع سيرة وحياة نظام الملك وليس غيره. وكان نظام الملك، كما هو ثابت، هو الذى جمع أهل العلم من الفلكيين الثقات، ومنهم الخيام، ليضعوا الزيج الجلالى، وهو الذى فرّغهم لهذا العمل، وخصهّم بالمال اللازم، وهيأ لهم كل الأدوات وأشاد بإنجاز الخيام حتى أن السلطان ملكشاه قربّه وجعله من جلسائه.

*****

(٣)

المناخ الثقافى

كانت نيسابور فى عصر الخيام ملتقى الثقافات والحضارات، وسكانها أخلاط من مختلف الجنسيات والألوان والنحل والديانات، وتنتشر فيها دكاكين الكُتبية تبيع المصنفات المترجمة والمؤلفة، والأسواق تحفل بالبضائع من أطراف الدنيا، والمشترون والبائعون يتكلمون لهجات معروفة أو مجهولة، والناس بأزياء عجيبة وألوان من الثياب غريبة، وقد وفدوا من كل صوب بعيد. وفيها الحانات على المشارف يديرها المجوس أو اليهود، ويروج لها البغايا والقيان والصادحات والضاربات بالدفوف والعازفات على العود من كل صنف وملة.

وكان المناخ الثقافى العام كوزموبوليتانى، أى مناخ عالمى، فالسلاطين أتراك يرطنون بالتركية، والشعب فارسى يلحن بالفارسية، والديانة عربية لسانها عربى، والجنود من شتى بقاع الإسلام وأنحاء الإمبراطورية، والقواد من المماليك. وفى عهد السلاجقة قيض لهذه الدولة وزراء مستنيرون كان أبرزهم نظام الملك، أطلق السلاطين يده فى الإدارة، وكان من أهل الأدب والعلم فأنشأ المدارس النظامية وشرع نوابه فى تعميمها ابتداء من سنة ٤٥٩هـ، ولما استتمت أول مدرسة كبرى منها وانتظمت أحوالها، سكنها من حملة الشريعة رجالها، وأراد بها مؤسسها أن تكون قلعة للسُنّة تنافس المدارس الفاطمية فى مصر. وكان الفاطميون قد فاجأوا العالم الإسلامى بإنشاء **دار الحكمة** سنة ٣٩٥ هـ لتدريس المذهب الاسماعيلى، وزودوا الدار بمكتبة أطلقوا عليها دار العلم حوت الآلاف من الكتب فى الفقه واللغة والكيمياء والطب وسائر العلوم والآداب، وحوّلوا الأزهر للتدريس سنة ٣٦٥ هـ وصيّروه مركزا لمجالس الحكمة. وفى عهد نظام الملك صارت المدارس النظامية نموذجاً فريداً لدور التعليم الإسلامي السُنّى، وألحقت بها المكتبات، وأُجرى على علمائها الأرزاق. ووفر نظام الملك لأرباب العلوم حقوقاً لا تؤخر، ورسوما لا تُغيّر، وميراثاً لهم يأخذونه بقدر الفرائض، ويأمنون بها من النوائب والعوارض. وقيل إن ما كان ينفق سنويا فى عهد السلاجقة على طلبة العلم بلغ ٦٠٠,٠٠٠ دينار فى السنة. وكان من علماء المدارس النظامية أبو طاهر عبد الرحمن بن محمد بن علك، وأبو عبد الله الطبرى، وأبو سعد عبد الرحمن بن المأمون المتولى، وأبو القاسم البكرى، وكلهم أساطين من أساطين العلم ودهاقين المعرفة. ومنهم **الإمام الغزالى وأبو إسحق الشيرازى**. ولما توفى الشيرازى كاد نظام الملك يغلق المدرسة النظامية سنةً حزناً عليه، وصلّى عليه الخليفة نفسه وبلغ من تكريم الناس للشيرازى ولأهل العلم فى حياته أنه فى طريقه إلى لقاء ملكشاه ونظام الملك كان كلما مرّ بمدينة من بلاد العجم يخرج أهلها إليه بنسائهم وأولادهم، يتمسحون بركابه، ويأخذون تراب بغلته للبركة، وكان الفقهاء يدعونه كل منهم أن يدخل بيته. ولقيه أصحاب الصناعات ومعهم ما ينثرونه على محفته، وخرج الخبازون ينثرون الخبز وهو ينهاهم فلم ينتهوا، وكذلك أصحاب الفاكهة والحلواء وغيرهم. وخرج إليه الأساكفة وقد عملوا مداسات لطافاً تصلح لأرجل الأطفال، ونثروها فكانت تسقط على رءوس الناس، وكان الشيخ يتعجب ويتندر مع أصحابه من بعد، ويسألهم كم مداس وقع على رءوسكم! وخرج إليه مشايخ الصوفية، وكانوا يقبلون يده فيركع ويقبل أرجل المشهورين منهم من ذوى الصلاح والفضل.

ومن الشخصيات الصوفية لهذا العصر **القشيرى** صاحب **الرسالة**، وقد تولى ابنه أبو نصر التدريس فى النظامية وفى رباط الصوفية، وأبدى فى تعليمه شعار الأشعرية، وزعم أنه يحقق أدلة الموحدة المنزهة ويبطل شبه المجسمة، فثارت الفتنة بين العامة، وقصدت الحنابلة سوق المدرسة، وقتلوا جماعة، وأظهروا شناعة، وورد مؤيد الملك بن نظام الملك فى عسكره فلم يطق دفعاً، ولم يستطع منعا، ونسب نظام الملك إلى بنى جهير تلك الفتنة.

ومن الشخصيات الصوفية أبو الحسن البسطامى وأبو نصر بن أبى عبد الله بن جَردة، وعبد الرازق الصوفى. وكان من أهل الأدب أبو الفوارس الحسن بن على الخازن وله الشعر:

عنت الدنيا لطالبها * واستراح الزاهد الفطن
عرف الدنيا فلم يرها * وسواه حظه الفتن
كل مَلِك نال زخرفها * حظه مما حوى كفَن
يقتنى مالاً ويتركه * فى كلا الحالين مفتتن
أملى كونى على ثقة * من لقاء الله مرتهن
أكره الدنيا وكيف بها * والذى تسخو به وَسَن
لم تدم قبلى على أحد * فلماذ الهمّ والحَزَن؟

وكأنه قد تقمّص روح الخيام الذى يقول:

زخارف الدنيا أساس الألم * وطالب الدنيا نديم الندم
فكن خلىّ البال من أمرها * فكل مافيها شقاء وهَمّ
وأسعد الخلْق قليل الفضول * من يهجر الناس ويرضى القليل
من يحسب المال أحب المنى * ويذرع الأرض يريد الغنى
يفارق الدنيا ولم يختبر * فى كدّه أحوال هذى الدنى

ومن أشخاص هذه الفترة الفقية عبد الله بن يحى بن محمد بن بهلول. ومن مدرسى النظامية أردشير بن منصور أبو الحسين الواعظ العّبادى، وكان مجلسه من المستمعين يشغل مساحة من الأرض، طولها أحيانا ١٧٥ ذراعا، وعرضها ١٢٠ ذراعا، وكانوا يزدحمون ازدحاما كثيرا، وكان النساء أكثر من ذلك. ولما نهى عن أن يتعامل الناس بالقراضة بدعوى أنها ربا، منعه الناس من التدريس وأخرجوه من البلد.

ومن الحوادث الثقافية ذات الدلالة فى موضوعنا أن عبد الباقى بن محمد الحسين بن ناقيا الشاعر، كان يتهم بأنه يطعن الشرائع كالخيام، فلما مات كانت يده مقبوضة فلم يطق الغاسل فتحها، فبعد جهد فُتحت فإذا فيها مكتوب:

نـزلت بجـار لا يخـيب ضـيفه * أرجىّ نجاتى من عذاب جهنم
وإنى على خوفى من الله واثق * بإنـعامه والله أكـرم مـنعم

وما أشبهه بالخيام إذ يقول:

قيل لدى الحشر يكون الحساب * فيغضب الله الشديد العقاب
ومـا انـطوى الرحمن إلاّ على * إنالة الخير ومنح الـثـواب

ولعل **الحركةالباطنية** من الحركات الكبرى التى شغلت أفكار الناس وكانت من التيارات الثقافية التى صنعت عصر الخيام، وكان قد اجتمع من الباطنية ١٨ رجلا، صلواً صلاة العيد، وفطن الناس لما يدعون إليه فحبسوهم ثم أطلقوهم. ثم إنهم دعوا مؤذنا فلم يجبهم إلى دعوتهم فخافوا أن يفشى سرّهم فقتلوه، فهو **أول قتيل لهم**، وبلغ خبره نظام الملك فأمر بأخذ من يُتهم بقتله، فوقعت التهمة على نّجار اسمه «طاهر» فقتل ومُثّل به، فهو **أول قتيل منهم**. وكان والده واعظاً، وقصد البصرة فولى القضاء، ثم توجه فى رسالة إلى كرمان، فقتله العامة فى الفتنة التى جرت، وذكروا أنه باطنى.

ثم إن الباطنية قتلت **نظام الملك**، وهى **أول قَتْلة مشهورة كانت لهم**، وقالوا «قَتَلَ نجاراً فقتلناه به».

وممن قتلوه من الشخصيات ذات الوزن العلمى والثقافى **أبو القاسم إبن إمام الحرمين أبى المعالى الجوينى** بنيسابور، وكان من خطبائها. واتهم العامة أبا البركات الثعلبى الباطنى بأنه هو الذى سعى فى قتله فوثبوا به فقتلوه وأكلوا لحمه.

وكان السباب يتناول المذاهب على المنابر. وفى هذا العصر كثر الإلحاد والغلط فى الدين، وانتشر التآليف على طريقة اليونان والشروح على كتبهم، وقيل فى الفلسفة إنها بدعة مستوردة، واتّهم الفلاسفة فى دينهم وامتُحنوا فى إراداتهم. وامتاز العصر بالمؤلفات الكثيرة التى تردّ على أهل الفلسفة، وتحرّض الحكومات عليهم، وتوعز إلى العامة بمحاربتهم

وكانت هناك اتهامات فكرية متبادلة، وحركة كبرى من النقل من اليونانية بخاصة، وصار من المألوف أن المفكرين الكبار يقرأون بأكثر من لغة، وتجتمع فيهم روافد متعددة من

الحضارات والثقافات فلا تدرى الأصول الحقيقية لثقافاتهم واتجاهاتهم الفكرية من كثرة الموارد عليهم.

ولسوف نرى فى رباعيات الخيام من كل ذلك الكثير، كما سنرى كيف تأدىّ به تضارب المذاهب وتطاحنها وإلغاء بعضها لبعض أن زهد فيها جيمعا وتشكّك فى العقل نفسه. يقول:

تزداد حيرة عقلى كل داجيـــــــة
والدمع حولى مثل الدُرّ مسكـــــوب
كم سِرتُ طفلاً لتحصيل العلـوم وكَمْ
أصبحتُ بعد بتدريسى لـها طَرِبـــا
فاسمعْ ختامَ حديثي ما بلـغتُ سِوى
أنـى بُدئتُ تـراباً ثم عدتُ هـبَـا!!

*****